﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تعرضنا إلى هذه الآية الكريمة فى بداية سورة البقرة .. لأن السورة سميت بهذا الإسم .. ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف : « وإذ » .. يعنى واذكروا : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .. ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة .. ولابد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والمفروض فى كل الأمور أن الأمر تسبقه علته .. ولكن هذه عظمة القرآن الكريم .. لأن السؤال عن العلة أولا معناه أن الأمر صادر من مساو لك .. فإذا قال لك إنسان إفعل كذا .. تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه .. إذن الأمر من المساوى هو الذى تسأل عن علته .. ولكن الأمر من غير المساوى .. كأمر الأب لإبنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده .. مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه .. لأن الذى أصدره أحكم من الذى صدر إليه الأمر .. ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولا .. فيكون قد فعل الأمر بعلته.فكأنه قد فعله من أجل العلة .. ومن هنا يزول الإيمان .. ويستوى أن يكون الإنسان مؤمنا أو غير مؤمن .. ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله ..

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا .. عرف علته أو لم يعرف .. ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله .. ولذلك فإن تنفيذ أى أمر إيمانى يتم لأن الأمر صادر من الله .. وكل تكليف يأتى .. علة حدوثه هى الإيمان بالله .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أى يا من آمنت بالله ربا وإلها وخالقا .. خذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك .

فى هذه الآيات التى نحن بصددها أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك . فجاء بالأمر بذبح البقرة أولا .. وبالعلة فى الآيات التى روت لنا علة القصة .. وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى .. سواء عرفت العلة أو لم تعرفها ، فأنت تؤدى الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصلى .. فلو أديت الصلاة على انها رياضة أو انها وسيلة للاستيقاظ المبكر .. أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر .. إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادى وليدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها .. وأن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك .. وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التى فرضها الله عليك لأن الله فرضها .. وكذلك كل العبادات الأخرى ..

الصوم ليس شعورا بإحساس الجائع .. ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عباده .. إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك .. وإن جعلت للصيام أى سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله .. والله أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه .. وكذلك كل العبادات .

هذا هو المفهوم الإيمانى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه فى قصة بقرة بنى إسرائيل .. ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا .. بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه فى آخرها عن السبب .. وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير فى إيماننا بحقيقة ما حدث .. وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهى موجوده .

قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .. أعطى الله تبارك وتعالى

الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بنى إسرائيل .. ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل .. ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أخذوا فى المساومة والتباطؤ : « وإذ قال موسى لقومه » .. كلمة قوم تطلق على الرجال فقط .. ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن قوم هم الرجال .. لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم .. ولذلك يقول الشاعر العربى :

وما أدرى ولست أخال أدرى
أقومٌ آل حصنٍ أم نساءُ

فالقوامة للرجال .. والمرأة حياتها مبنية على الستر فى بيتها .. والرجال يقومون لها بما تحتاج اليه من شئون .. والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها وهى فى هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال .. قوله تعالى : « إن الله يأمركم » .. الأمر طلب فعل.وإذا كان الآمر أعلى من المأمور نسميه أمرا .. وإذا كان مساويا له نسميه إلتماسا .. وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء .. على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾

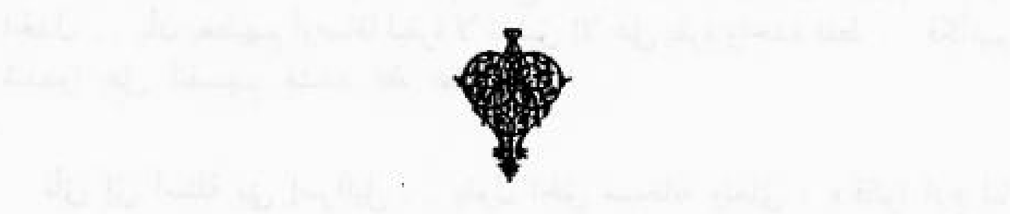
(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

هل هذا أمر من زكريا ؟ طبعا لا . لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى .. قوله تعالى : « الله يأمركم » .. لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة .. أهذه تحتاج إلى إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شىء قد تم دون أى جهد .. فمادام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة .. فكل

ما عليهم هو التنفيذ . .

ولكن أنظر إلى الغباء حتى فى السؤال . . إنهم يريدون أن يفعلوا أى شيء لإبطال التكليف . . لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا . . أى أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد . . فاتهموا موسى انه يهزأ بهم . . كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة . . وعندما سمع موسى كلامهم ذهل . . فهل هناك نبى يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى . . أينقل نبى الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل ؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون . . جاهلون بربهم وبرسولهم وجاهلون بآخرتهم . . وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى . . فاتجه إلى السماء يستعيذ بالله من هؤلاء الجاهلين . . الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسرا . ويأتيهم السهل فيريدونه صعبا . . ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء فى حياتهم صعبا وشاقا .



﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم .. لم يقولوا ادع لنا ربنا .. بل قالوا إدع لنا ربك ، وكأنه رب موسى وحده .. ولقد تكررت هذه الطريقة فى كلام بنى إسرائيل عدة مرات .. حتى إنهم قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

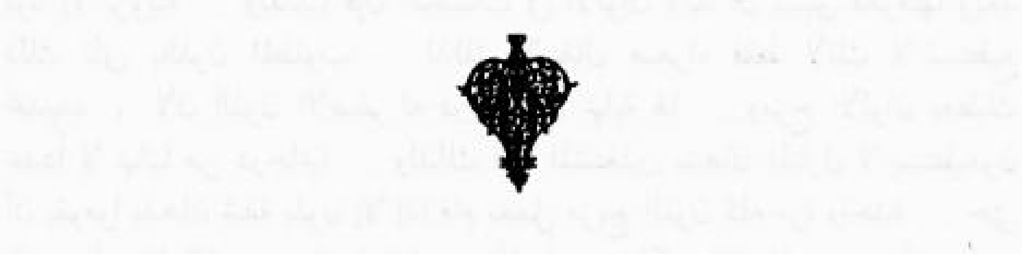
ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة .. يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى .. فبدلا من أن ينفذوا الأمر وتنتهى المسألة يوجهون سؤالا آخر .. فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدى الجواب إلى سؤال فى غير محله منهم .. ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل .. بأن يعطيهم أوصافا لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط .. فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ..

نأتى إلى أسئلة بنى إسرائيل .. يقول الحق سبحانه وتعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » .. سؤال لا معنى له ولا محل .. لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة .. ولم يقل مثلا إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال .. فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : « إنها بقرة لا فارض ولا بكر » .. الفارض فى اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة .. ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع ؟ البقرة تتعرض للحمل كثيرا وأساسا هى للبن وللإنجاب .. ومادامت قد تعرضت للحمل كثيرا يكون مكان اللبن فيها فى

اتساع .. أى أن بطنها يزداد اتساعا مع كل حمل جديد .. وعندما يكون بطن البقرة واسعا يعرف عنها أنها مسنة وولدت كثيرا وصارت فارضا .

وكلمة « بكر » لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها فحل .. ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة .. ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن .

وقوله تعالى : « عوان بين ذلك » .. يعنى وسط بين هذه الأوصاف كلها .. الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول : « فافعلوا ما تؤمرون » .. يعنى كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة .. ولكنهم لم يسكنوا انهم يريدون أن يحاوروا .. ولذلك غيروا صيغة السؤال .



﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (٦٩)

بحثوا عن سؤال آخر : مالونها ؟ كأن الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها ؟ مع انه سبحانه وتعالى قال لهم : « فافعلوا ما تؤمرون » . . فلم يفعلوا بل سألوا ما لونها ؟ « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء » والصفرة لون من الألوان . . ثم قال جل جلاله : « فاقع لونها » . . يعنى صفرة شديدة . . ثم قال : « تسر الناظرين » . . يعنى أن كل من ينظر إليها يُسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدها . .

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . . وفى الألوان لا يمكن أن تحدد لونا إلا برؤيته . . ولذلك فإن المحسَّات فى الألوان لابد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتى باللون المطلوب . . لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده ، لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . . ومزج الألوان يعطيك عدداً لا نهائيا من درجاتها . . ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة . . حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . . ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة باللون نفسه . . بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لايستطيع . . فإذا سمعت صفراء يأتى اللون الأصفر إلى ذهنك . . فإذا سمعت "فاقع" فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب . . "فاقع" أى شديد الصفرة .

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة . . إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين . . وكان من المفروض أن يكتفى بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى .

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ورغم أن ما قيل لبنى إسرائيل .. واضح تمام الوضوح عن البقرة .. وعمرها وشكلها ولونها ومنظرها .. فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم ينظرون إلى البقر .. وهذا يقول هذه هى والآخر يقول لا بل هى فى مكان كذا .. والثالث يقول لا بل هى فى موقع كذا .. وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم .. وهنا ذكروا الله الذى نسوه ولم ينفذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم : « افعلوا ما تؤمرون » .. فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم .. وجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى .



﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

«بقرة لا ذلول» .. البقرة الذلول هي البقرة المروضة الممرنة تؤدى مهمتها بلا تعب .. تماما مثل الخيل المروضة التى لاتتعب راكبها لأنه تم ترويضها .. وسيدنا اسماعيل هو أول من روض الخيل وساسها .. وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة .. لا أحد قادها ولا قامت بعمل .. إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها فى الحقول بدون قائد .. «تثير الأرض» أى لم تستخدم فى حراثة الأرض أو فلاحتها .. «ولا تسقى الحرث» .. أى لم تستخدم فى ادارة السواقى لسقية الزرع .. «مسلمة لا شية فيها» أى خالية من العيوب لا أذنها مثقوبة . ولا فيها أى علامة من العلامات التى يميز الناس أبقارهم بها .. ولا رجلها عرجاء ، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع .. وكلمة «لا شية فيها» .. أى لا شيء فيها .

والمتأمل فى وصف البقرة كما جاء فى الآيات يرى الصعوبة والتشدد فى اختيار أوصافها .. كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم .. ولم يجد بنو اسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا «الآن جئت بالحق» كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق . وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم .. لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج . هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى .. والله يقول لنا أن سمة المؤمنين ان يسارعوا الى تنفيذ تكاليفه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

(سورة آل عمران)

وهذه السرعة من المؤمنين فى تنفيذ التكاليف . . دليل على عشق التكليف . . لانك تسارع لتفعل مايطلبه منك من تحبه . . وقوله تعالى : «وما كادوا يفعلون» . . يدلنا على أنهم حاولوا الابطاء فى التنفيذ والتلكؤ .

اننا لابد أن نلتفت الى أن تباطؤ بنى اسرائيل فى التنفيذ خدم قضية ايمانية أخرى . . فالبقرة التى طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر . . والمواصفات التى أعطيت لهم فى النهاية . . لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها فى ثمنها ويبيعها بأغلى الأسعار . .

والقصة أنه كان هناك فى بنى اسرائيل رجل صالح . . يتحرى الحلال فى الرزق والصدق فى القول والايمان الحقيقى بالله . وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنهما الصغير . . ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة . اتجه الى الله وقال : اللهم إنى استودعك هذه العجلة لولدى ، ثم أطلقها فى المراعى . . لم يوصِّ عليها أحداً ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمينة على كل شىء . . ثم قال لامرأته إنى لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله . . ولقد اطلقتها فى المراعى . .

وعندما كبر الولد قالت له أمه: إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهى عجلة . . فقال يا أمى وأين أجدها ؟ . . قالت كن كأبيك هو توكل واستودع ، وأنت توكل واسترد . . فقال الولد: اللهم رب ابراهيم ورب موسى . . رد الى ما استودعه أبى عندك . . فاذا بالعجلة تأتى اليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليريها لأمه . . وبينما هو سائر رآه بنو اسرائيل . فقالوا ان هذه البقرة هى التى طلبها الرب . . وذهبوا الى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم . . قالوا بثلاثة دنانير . . فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير . . قالت أمه لا . . لا تباع . . فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا ، فدفعوا له ماأراد . . وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظا على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم .

